إعداد وتأهيل النبي ﷺ لحمل الرسالة

(دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم)

Preparation and Qualification of the Prophet (Peace Be Upon Him) For Carrying the Message: An Objective Study in Light of Holy Quran.

د. علي ناصر علي صايل

Dr. Ali Naser Ali Sail

بسم الله الرحمن الرحيم

مستخلص البحث

انتخاب الله صفوة البشر ليكونوا المثال الواقعي الحي للمثل الإلهية والقيم الربانية التي ارتضاها للبشرية شرعةً ومنهاجًا، تخوض بها تجربة الحياة والابتلاء بغية النجاة والظفر بمرضاة الله تعالى، وقد اختار المولى سبحانه وتعالى لهذه المهمّة عبده ورسوله محمدًا ﷺ وأهّلَهُ لحمل هذه الرسالة، ليكون نبراسًا حيًا في حياة حملة هذا الدين من بعده، وقد جمع البحث دراسة لموضوع إعداد وتأهيل النبي ﷺ لحمل الرسالة دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم، وقد أورد الباحث صورًا لتأهيل الله تعالى نبيه لحمل الرسالة، ويشتمل على: المبحث الأول: إعداد الله عبده للرسالة، وذلك من خلال الإعداد النفسي، و التاريخي للرسول ﷺ والتهيئة الاجتماعية.والمبحث الثاني: الإعداد الدعوي وذلك من خلال المطلب الأول قيام الليل وتلاوة القرآن الكريم، والمطلب الثاني: القدوة الحسنة، والمطلب الثالث: الصبر والثبات والبطولة، والمطلب الرابع: الذكر والدعاء.

وخلُص البحث إلى ما يلي:

١. لقد أعد الله تبارك وتعالى النبي محمد ﷺ على عينه وتحت رعايته، واصطفاه من بين سائر العالمين، وأيده بالمعجزات والدلالات والبينات، وأهلَّه بمؤهِّلات تمكِّنه من حمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين.

٢. إن الله تبارك و تعالى أعد نبيه ﷺ لحمل الرسالة إعدادًا نفسيًا واجتماعيًا ومهَّدَ لظهوره تاريخيًا؛ اقنع كل من حوله بأنَّه مرسلٌ من السماء ويجب عليهم اتباعه، والتسليم لما جاء به.

٣. إعداد الله سبحانه وتعالى نبيه وتأهيله لحمل الرسالة؛ من خلال: قيام الليل وتلاوة القرآن الكريم وتدبُّره، والذكر والدعاء الذي يصله بربه سبحانه وتعالى إذ هو زادٌ روحيٌ ومعنويٌ يعينه على تحمُّل تكاليف ومشقة الدعوة.

٤. إعداد الله لنبيه ﷺ ليكون قدوةً حسنةً لأتباعه من خلال خلقي : الصبر والثبات في مواجهة أعباء الدعوة وتحمُّل مكائد الكفار وحروبهم..

Abstract

The study discusses the topic of preparing and qualifying the Prophet (peace be upon him) to carry the message of Allah. It is an objective study in the of the Holy Quran where the researcher illustrates Allah's preparation of the Prophet (PBUH) to carry the message. The first section of the research deals with the psychological, social and historical preparation of the Prophet (PBUH). The second section, however, deals with the 'Dawa' (Islamic call) preparation which requires staying up for prayer at night and reciting the Holy Quran; setting a good example; being patient, tenacious and heroic; and glorifying and supplicating to Allah. The search reached the following conclusion:

- Allah (Praised and Exalted be He) has prepared the Prophet Muhammad under His care, chosen him from all the people of the worlds, supported him with miracles, indications, and clear proofs, and empowered him with qualifications that have enabled him to carry the final message to the worlds.

- Allah (Praised and Exalted be He) has psychologically and socially prepared His Prophet to carry the message, and has historically paved the way for his appearance; and that has enabled him to convince everyone around that he has been sent from Allah and that they should have followed him and submitted to what he has brought.

- Allah (Praised and Exalted be He) has prepared His Prophet and his family to carry the message through staying up for prayer at night, reciting the Holy Quran, and being a good example for his followers. That along with being patient and tenacious in facing the burdens of Dawa, enduring the machinations of the infidels and their wars, and glorifying and supplicating to Allah have helped the Prophet tolerate the hardship of Dawa.

المقدمة

لا مراء في أنَّ عصر البعثة النبوية عصرٌ متميِّزٌ بين الأعصر الزمنية، له في علم الله ميعادٌ معلومٌ كسرٍ من أسرار الغيب، حتى يأذن الله بإنزال رسالته على عبده المختار.

فليس من شك إذن أنَّ الله يختار للنبي عصره، ويؤقت له: ميلاده، ومبعثه، ووفاته. ولقد قال تعالى لموسى عليه السلام بعد أنَّ ذكَّره بأطوار ماضيه وكلاءته له فيه ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٤٠) وكذلك فإنَّ ميلاد محمد - ﷺ - على قدر وموعد إلهي مع الزمان، وكان عام الفيل الذي ولد فيه عامًا حافلًا في تاريخ الإنسانية، عامًا مليئًا بالأحداث الضخام.

وكانت هزيمة أصحاب الفيل آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته؛ جعلها بين يدي مبعث رسول الله - ﷺ - ، وكانت المنَّة بها على أهل مكة عظيمة، ولكن القوم كانوا في جاهلية ظلماء فما إن ذهب عنهم الروع وفزِّع عنهم حتى عادوا إلى غيهم ومظالمهم ومفاسدهم. ولم تكن الإشارة التي حملتها المعجزة لتنزعهم من الغي والضلال، فأتمَّ الله عليهم وعلى العالمين فضله بمعجزة أعلى وأسمى فأرسل إليهم محمدًا -ﷺ- ليبوأهم مكانًا عزيزًا كريمًا؛ وفي عام الإنقاذ هذا ولد المنقذ الأكبر محمد رسول الله -ﷺ- فجاء العرب وهم أعجز الناس عن حماية حوزتهم وحرمهم ورد الغزاة فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى صنع الله منهم فاتحي العالم ومنائر الحق والحكمة.

وقد صنع الله هذا النبي الأمي على عينه وتحت رعايته، واصطفاه من بين سائر النبيين، وأيده بالمعجزات والدلالات والبينات، وأهلَّه بمؤهلات تمكِّنه من حمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين، وعليه فقد جاء هذا البحث ليبيِّن هذه الموضوع بيانًا شافيًا إن شاء الله.

أولًا: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

أولًا: بيان منهجيَّة إعداد الله - سبحانه وتعالى- عبده محمد ﷺ للرسالة من الناحية النفسيَّة، والتاريخيَّة، والاجتماعيَّة.

ثانيًا: الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ في عبادته، وسلوكه وتعامله مع المدعوين وذلك من خلال تعامله -ﷺ- مع السنن غايةً في الحكمة وقمةً في الذكاء، كسنَّة التدرّج والتدافع والابتلاء والأخذ بالأسباب وتغيير النفوس، وغرس -ﷺ- في نفوس أصحابه المنهج الرباني وما يحمله من مفاهيم وقيم وعقائد وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر.

ثانيًا: أسباب اختيار البحث:

١. ليكون زادًا للدعاة إلى الله تعالى في مسيرتهم الدعوية.
٢. التعرف على أساليب النبي ﷺ الدعوية في جانب الأخذ بأسباب التمكين، وتعامله مع السنن الإلهية في تضرعه وعبادته وصبره.

ثالثًا: الدراسات السابقة:

بعد البحث والاطِّلاع لم أجد أحدًا كتب في هذا الموضوع بصورةٍ مستقلةٍ إلا ما وجد متفرقًا من خلال كتب التفسير والسيرة النبوية.

رابعًا: حدود البحث:

ويدور حول إعداد الله تعالى للنبي ﷺ لحمل الرسالة.

وكانت خطة البحث كالتالي: المبحث الأول: إعداد الله عبده ورسوله محمد ﷺ للرسالة:

المطلب الأول الإعداد النفسي.

المطلب الثاني: التمهيد التاريخي للرسول ﷺ.

المطلب الثالث: التهيئة الاجتماعية للنبي ﷺ .

المبحث الثاني: الإعداد الدعوي للنبي ﷺ ويتضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: قيام الليل وتلاوة القرآن.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: الصبر والثبات والشجاعة.

المطلب الرابع: الذكر والدعاء.

المبحث الأول

إعداد الله تبارك وتعالى لعبده ونبيه محمد -ﷺ- لحمل الرسالة

إذا كان لبعث النبي عند الله ميعادٌ معلومٌ فإنَّ أحواله وأوضاعه في مختلف مراحل حياته جاريةٌ على تقدير وتدبير من الله العزيز الحكيم؛ يختار له الوسط الذي يكتنفه، والمؤثرات التي تحيط به، ويفاعل بين نفسه وبين ما وضعه فيه، فيخلق فيها ردود الفعل المناسبة للمستقبل القريب. إنَّ الله هو الذي يصنع الأنبياء، وينشئهم النشأة المواتية للرسالة، إنَّه رب العالمين الذي تقبل مريم: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (سورة آل عمران الآية: ٣٧)وهو الذي صنع موسى على عينه، ووضعه في قصر فرعون آية كبرى من آيات التحدي لطغيان سادر، غير مرعوٍ، لينشأ في حجور الجبابرة، ويخرج من عندهم أكبر ناقم، وأشد ساخط على الظلم وتعبيد الشعوب، وهو الذي صنع محمد -ﷺ- على عينه وتحت عنايته ونشّأه تنشأةً ربانيةً بعيدًا عن الأهواء والمؤثرات .

ومن ثَمَّ لم يكن شيءٌ في حياة محمد -ﷺ- قبل المبعث إلا بتدبير الله الخالص وتهيئته؛ فكل ما في الوجود إنما هو بتقديره عز وجل. ولكن ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أهميه الظروف والحوادث التي عاشها نبينا محمد -ﷺ- لنتعرف على مغزاها العميق، ولنطيل الفكر في هذه التنشئة التي انتهت إلى تفجير الحكمة الخالدة التي رفعها الله نبراسًا هاديًا مشعًّا للبشرية إلى يوم الدين.

وقد اختاره الله تبارك وتعالى على عينه وتحت رعايته حيث قال: « فَإِنَّكَ

بأَعْيُننا» (الطور: ٤٨) إنَّه صنع على عين الله منذ زمن، ودرَّب على المشاق وهو طفلٌ رضيعٌ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغيرٌ ضعيفٌ، و قد اصطنعه الله لنفسه، واستخلصه واصطفاه[١].

وقد قيل لموسى عليه السلام من قبل: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى» (طه: ١٣) وقيل له: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي» (طه: ٣٩) وقيل له: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (طه: ٤١)

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة. ولكنه قيل لمحمد-ﷺ -: «فَإِنَّكَ بأَعْيُننا» وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص. وضهو[٢] يلقي ظلا فريداً أرق وأشف من كل ظل.. ولا يملك التعبير البشري أنَّ يترجم هذا التعبير الخاص[٣].

إن حياة تتفتح عن الحكمة الكلية الأخيرة للإنسانية لجديرة بالتفكر والتدبر والاعتبار وبأن تتأمل في شكلها ومضمونها والأحداث التي صنعت مادتها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط/ السابعة عشر - ١٤١٢ هـ ٤/٢٣٣٤.

(٢) ضهو: المُضَاهَاةُ: مُشاكَلَةُ الشيء بالشيء. وهي المُبَاراةُ. ورُبما هُمِزَ. وَالضهْواءُ من النساء: التي لم تنهد بعد.انظر: المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ) ١/٣١٥

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٤٠٢

المطلب الأول : الإعداد النفسي:

كان أول وحي نزل على رسول الله -ﷺ- في غار حراء شديد الوطأة؛ لقد عانى حادثة غير عادية ولا مألوفة ، خفية العلة، ولا يفسر حدوثها بسبب من الأسباب الظاهرة (كما ينشأ الغيث في السحاب ، مثلا) فإنَّ مصدرها ليس عالم الشهادة بل عالم الغيب. هنالك لا يسع الإنسان إلا أنَّ يتلقى بالقبول المطلق والتصديق الكلى ، لأن أحداثه فوق منطق الأرض المحدود بالسبب والنتيجة. لذلك لا يقدر على احتمال الوحي إلا الأنبياء الذين أعدهم الله للثبات عند رؤية الملاك، وتصديق ما جاءهم من خبر السماء. ولم يصادف الوحي من رسول الله -ﷺ- نفساً لم تهيأ لاستقباله ، بل جاءه بعد إعداد طويل من رب العالمين، عرف فيه حوادث غيبية المنشأ، لم يدر لها علة ظاهرة. فكانت مقدمةً صالحةً لاستقبال الوحي، رفقا من الله برسوله، ورحمة بنفسه البشرية(١)، ومن ذلك:

١- خلوه بنفسه في غار حراء:

وكأنَّ بعض هذه الحوادث كانت تقول له قبل مبعثه: لست وحدك، ولا لنفسك وإنَّما أنت للذي يعدِّك ويرعاك لتكون امرًا غير الآخرين، وإنَّ في غدك لأمرًا فترقبه، فتبعث فيه تساؤلًا وتطلعًا وترقبًا، وربَّما كان من شأنها أنَّ حببت إليه العزلة والتحنث في حراء.

٢- حادثة شقِّ الصدر:

حيث استقبل أولاها وهو طفلٌ مسترضعٌ في بني سعد يوم جاءه الملكان فشقَّا صدره واستخرجا قلبه وغسلَاه بالثلج والبرد. حادثةٌ فوق إمكان العقل الإنساني ولكنَّها على الله هينة؛ لذلك لم يكد أبواه في الرضاع يستمعان خبرها من فم الطفل البريء الصادق حتى طارا به إلى أمه في مكة فزعًا أن يكون بدأ به عرضٌ مرضيٌ

(١) النبوة: اصطفاء وقدوة (السنة ٣٣ - العدد ١١٣)، أحمد مختار البزرة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط/ السنة الثانية - العدد الثالث، محرم ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م وقدوة صـ ٢٠.

إذ لم يستطيعا أن يصدقا طفلًا في أمر لم يألفاه. ومن أدراهما أنَّ من بين أيديهما نبيٌ منتظرٌ؟! ولكن الطفل لم ينس الحادثة، ومرت في شعوره خفيفة الوقع وهو صغير، فلما شبَّ على الأيام تألقت في ذاكرته وإحساسه، ولا شكَّ أنَّها شغلت تفكيره حتى مبعثه، فلما جاءه الملك ليلة الإسراء، وشقَّ صدره للمرة الثانية وغسَّل قلبه بماء زمزم استعدادًا للسفر به إلى الملأ الأعلى والمثول بين يدي الله تيقن أنَّ حادثة الطفولة كانت إحدى براهين النبوة ليتعرفها في نفسه، وليثبت يوم يزعزع كيانا في غار حراء والملك يفته ويقول﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١) ويوم يقول لخديجة رضي الله عنها: «مالي أي شيء عرض لي؟ لقد خشيت على نفسي[١] في هذه الساعات من الزعزعة المحيِّرة، كان تذكر هذه الحادثة وما أشبهها أنفع شئ في الثبات واليقين، وتستبين حقائق الحاضر بدلائل من الماضي. وقد عرف رسول الله - ﷺ - مغزاها الكامل إذ سئل: خبرنا عن نفسك يا رسول الله[٢] فجعلها عليه الصلاة والسلام إحدى أربع علامات للنبوة عرفها في نفسه. ومن يدري؟ ربما ظل رسول الله - ﷺ - طوال حياته يستشعر العذوبة والراحة النفسية التي أحس بها عندما استخرج الملكان من قلبه علقة سوداء وغسَّلاه بالثلج والبرد: إننا لنسمعه يقول في دعاء له «اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج، والماء، والبرد»[٣]

٣- الرؤيا الصادقة وتسليم الحجر عليه بمكة، وحفظ الله في عدم كشف عورته في الصغر:

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبِّب الخلاءُ

(١) البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ، دار هجر ، مصر ، ط الأولى - ١٤١٧ هـ . ج٣ ص٧.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٩ م.: م١ ص١٦٦.

(٣) الأذكار، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ص٤٣.

إليه. يعني: العزلة وكان يأتي حراء، ويمكث هناك، ثم يرجع إلى خديجة[١]، وفي ذلك تهيَّئةٌ لنفسيَّة النبي لحمل الرسالة وتقبل الوحي.

ومن هذا القبيل ما كان يومئ بالرسالة المقبلة بصريح اللفظ. قال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إنِّي لأعرفه الآن[٢] وصدق رسول الله فإنَّ تسليم الحجر عليه قبل الوحي كان لتنبيه فكره وإثارة شعوره وتوجيهه إلى استشراف ما هو غيبي المصدر.

وثمة حوادث تقصد مع تنبيه النفس التنزه عن الوسط الجاهلي. وللبيئة أثرٌ في النفس لا يدفع، وقد تولَّى حفظ نفس نبيه - ﷺ - من الأقذار والأخطار، حتى يتمَّ له الطهر ويسلم له النظر السليم، والإحساس اليقظ وليفرِّق بين القيم الحقيقية التي هي كمال الإنسان وبين القيم التي هي النقص والخسران ولقد شاء الله - ومشيئته حقٌّ ونورٌ - أنَّ تتمايز هذه النفس عن محيطها لتبصر مساوئه وتنقده نقدًا دقيقًا عادلًا حرًا تنقده وهي تنظر فيه بنور الله نقدًا لا يعرف المداهنة، ولا أنصاف الحلول فإنَّ الحق لا يتجزأ أو لا يجزئ بعضه عن بعض؛ إننَّا نلحظ أن الله قد حمى نبيه من أن ينكشف إزاره عن العورة إذا تعرى الصبيان أو الرجال وهم يحملون الأحجار للعب أو لبناء الكعبة[٣] وفي هذا صيانة لنفسه النبوية من أنَّ تتأذى بما يبعث في النفس من أحاسيس غير كريمة، وحماه من حضور مجالس اللهو والغناء وكان حييًا. وكانت الكعبة تزخر بالأصنام وقريش تذبح لها في الأعياد، فحال الله بين نبيه وبينها فلم يمس حياته صنمًا ولم يحضر عيدًا لها. لقد فارق

(١) رواه البخاري في صحيحه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، باب/ كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ٢٥٦٩/١،رقم ٤٩٥٤، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .. وترقيم الأحاديث موافق لترقيم أحاديث فتح الباري، الطبعة الهندية من ملتقى اهل الحديث ط/: الأولى، ١٤٢٢هـ رقم (٣).

(٢) صحيح مسلم: للإمام الحافظ مسلم بن الحجاج النيسابوري ، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي طبعة بيت الأفكار الدولية - الرياض ١٤١٩ هـ . ، باب فضل نسب النبي ﷺ ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ١٧٨٢/٤، رقم ٢٢٧٧.

(٣) البداية والنهاية ج٢ ص٢٨٧،

قومه في باطلهم مفارقةً كبيرةً عرفتها عشيرته فيه قبل النبوة، ومن أعجبها وقوفه بعرفة مع الناس، على حين كانت قريش مما يقفون في المزدلفة.

ذلك أنَّ الله أنعم عليه بالحس السليم الذي يميِّزُ بين الحق والباطل فكان رسول الله ﷺ إذا وجد في قومه فضلًا نوَّه به ومِنْ هذا ثناؤه على حلف الفضول الذي تعاقدت قريشٌ فيه على رد الحقوق للمضطهدين وعلى حماية الضعفاء منها ومن غيرها، فقال فيه: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أنَّ لي به حُمْرَ النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت» (١) ولعل هذه العدالة في الحكم ظاهرة الدلالة في قوله: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق» (٢).

هذه الحوادث وأضرابها من إرهاصات النبوة لم يمنحها المحدثون من كتاب السيرة ما تستحق من عناية وبحث فتجاوزو كثيرًا عن كثير منها، ولم يتلبثوا عندها إلا يسيرا. ولو أمعنوا النظر وتتبعوا أحوال المصطفين والأنبياء لو جدوا فيها سنة من سنن الله في إعداد أنبيائه.

---

(١) السيرة لابن هشام ، مؤسسة علوم القرآن، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي م١ ص١٣٤،. الرحيق المختوم (مع بعض التعديلات والزيادات من د علاء الدين زعتري وغسان محمد رشيد الحموي)، صفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: ١٤٢٧هـ)، دار العصماء - دمشق ط/ الأول - ١٤٢٧، صـ١٢، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار ابن كثير - دمشق ط/ الثانية عشرة - ١٤٢٥ ه صـ١٧٤، والحديث في السنن الكبرى بن الحسين بن علي بن موسى ا الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات، ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ٦/ ٥٩٦، رقم ١٣٠٨٠

(٢) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، بَابُ/ مَا جَاءَ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، ٢/ ٩٠٤، رقم ٨ صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٤، رقم ١٦٠٩)، وهو حديث مدني صحيح متصل في وجوه صحاح.

المطلب الثاني:

التمهيد التاريخي لظهور النبي -ﷺ- :

وتلك التمهيدات غرضها إعداد الرسول لقبول الرسالة ليطمئن بها قلبه، وليعلم أنَّه قد جاءه الحق من ربه، وهي لا تعدو في أثرها نفس الرسول ولا تستهدف غيره ولكنَّ محمدًا ﷺ قد سبق أمر الله أنَّ تختم به الرسالات، وأن يقضي على آثار المرسلين أجمعين، وأن يجعل دعوته عامةً لكل عاقل على ظهر الأرض، وهو أمرٌ لم يكتمه الله عن البشر. وإنما هيَّأ له الأذهان، ووجَّه إليه الأنظار منذ زمن بعيد، إعلاءً لشأنه وإظهارًا لأهمية رسالته، وليكون الناس معها على وعدٍ غير مكذوبٍ ولتشرئب نفوسهم إلى الكمال المرتقب وليتشرَّفوا إلى الانتساب إلى الرسالة الخالدة، وليعلموا أنَّ كمال النبوة وتمام الحق فوق ما حضروا أو عرفوا من أمر الأنبياء والرسل وليُحييَ الأمل نفوسًا كانت تألم وتتأذى من جهل منتشر وباطل مستمر.

ويبدو أنَّ الأنبياء الذين بعثوا في الزمن المبكر، لم يتجاوز علمهم بالنبي ﷺ سوى الإخبار بمبعثه، وأخذ العهد عليهم، أو دعوة حارة تجري على لسان إبراهيم عليه السلام فتفتح لها أبواب السماء، وتلتقي بما قدر الله منذ الأزل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٢٩) فلما تأخَّر الزمان وأنزلت التوراة والإنجيل، توضَّحت الإشارات وذكرت العلامات، وصار الذين عندهم علم الكتاب على بينة من مجيء رسول اسْمُهُ أَحْمَدُ كما قال تعالى (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) (سورة الصف الآية: ٦) لا يخطئونه. إن رأوه أدركوا يومه. فقد وضَّح الله لهم كثيرًا من علاماته؛ مكان بعثه، مهاجره، وصفاته. ثم أتى على التوراة والإنجيل ما أتى من التبديل والتغير. وأفسدت الوثنية الدين الذي جاء به عيسى، ودخل أتباعه من بعده في الشرك إذ قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة. واختفى دين التوحيد فلم يستمسك به إلا رهبان أو أساقفة قلة، منقطعون في الصوامع، أو الكنائس يتجافون

عن الناس في شركهم، وفساد عقيدتهم، ولا يجرؤون على النعي عليهم[١] خوفًا من بطشهم وتنكيل الحكام بهم[٢]. وأغلب الظن أنَّ هؤلاء النفر القليل احتفظوا بصفاء دين عيسى عليه السلام، بما خبؤوا في صوامعهم من صحف الإنجيل الذي كان أقرب شيء إلى الأصل الذي أنزل على نبي الله عيسى عليه السلام. قال ابن إسحاق لما ذكر الراهب بحيرى: «فلما نزل الركب المصري من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون يتوارثونه كابرًا عن كابر»[٣]. ويلتقي هذا الحديث بحديث سلمان الفارسي -رضي الله عنه- الذي تقلب في كنائس عدد من الأساقفة الصالحين قبل أنَّ يصير إلى أرض العرب قبيل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم - إذ قال له أسقف عمورية وهو على فراش الموت، وكان آخر أسقف رافقه: «والله ما أعلمه أصبح اليوم أحدٌ على مثل ما كان عليه الناس، آمرك به أنَّ تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين فيهما نخلٌ به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة فإنَّ استطعت أنَّ تلحق بتلك البلاد فافعل». فكان هؤلاء ينتظرون الوعد الحق؛ ظهور النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[٤].

---

(١) النَّعيُّ، وهو مصدر نَعَيتُ الميت أَنْعَاه، انظر: غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر ط/ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ٣/٣٣٣

(٢)النبوة: اصطفاء وقدوة صـ ٢٥.

(٣)الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م٢/ ١٤٠، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المتوفى: ٧٣٤هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم - بيروت، ط/ الأولى، ١٤١٤/١٩٩٣. ١ /٥٢،

(٤) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، ٢/٣٣٥، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٤٢٥ هـ ١/٢٥٣.

المطلب الثالث:

التهيئة الاجتماعية لمبعث النبي ﷺ:

إنَّ الرسالة الإلهية لابدَّ لها من ظرف اجتماعي تملؤه وتتحرك في أنحائه، وتنتشر فيه، ومن ثَمَ كانت التوطئة الاجتماعية، وإعداد من حول النبي للتصديق بنبوته أمرًا يتَّسق والتوطئة النفسية والتاريخية.

ولو نظرنا باقي المجتمع القرشي، قبل المبعث لوجدنا رسول الله ﷺ، ملحوظ المكانة فيه، ظاهر الشخصية، مرضي السيرة، مرجوًا للخير، يدلُّ على ذلك لقب (الأمين) الذي أضفوه عليه. وهو لقبٌ، ضخم المحتوى، فالأمانة سجية تجمع لصاحبها سلامة السريرة والسلوك، وصدق الطويَّة والفعل، فلا تناقض بين مظهره ومخبره، بل يصدِّق فعله قوله، ويصدِّق قوله وجدانه وخبيئة نفسه[1]. فالأمانة أول معنىً لها الاطمئنان والثقة؛ اطمئنان الآخرين إلى شخص الأمين، وثقتهم بما يصدر عنه. وهي سجيَّة لا يشهد بها لأمرئ إلا بعد التجربة والاختبار المتواتر[2] المستمر. ويمكن أنَّ يقال بحق: إنَّ الأمين من أمن الناس لسانه ويده. وهكذا كانت قريش قبل المبعث لا تخشى من رسول الله ﷺ معرة، ولا يتخوفون منه كذبًا، ولا يتوقعون منه إلا استقامة، ولا يعرفون فيه إلا نبلًا وشرفًا ووفاءً. ولا نكاد نجد لقبًا أجمع لخصال المروءة والرجولة والعدالة من لقب الأمين. وهو لقب ينطوي على خصال نابعة من الذات، ومن جوهر النفس ولا ينم عن صفة جسدية - كلقب أبي لهب مثلًا - أو على خصلة وحيدة غالبة منفصلة عن مجموع الخصال التي تؤلف التكامل في الخلق والنفس، - كلقب الفيض والفياض مثلًا للكريم المترف - ولا أظن

---

(١)تثبيت دلائل النبوة، القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (المتوفى: ٤١٥هـ)، دار المصطفى - شبرا- القاهرة صـ ٢٥

(٢)لما وقف رسول الله ﷺ على الصفا وقال لقريش: «أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلا بسفح هذا الجبل تريد أنَّ تغير عليكم صدقتموني؟ « قالوا: «نعم». من حديث رواه أخرجه ابن حبان في الإحسان في تقريب صحيح محمد بن حبان، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) باب، ذِكْرُ تَمْثِيلِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْذَارَ عَشِيرَتِه بِمَا مَثَّلَ بِه، ١٤/ ٤٨٧ رقم ٦٥٥٠ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

أنه لقِّب في قريش غير محمد بهذا اللقب، ولم يكن محمد ﷺ في قومه زعيمًا، ولا طالب زعامة، ولم تعرف له - قبل النبوة - فئةٌ تدعمه ولا شاعرٌ يمدحه. فيكون لقبه منهم وإنما هو لقب فاز به بإجماع قريش كلها، رجل كان أبعد الناس عن حياة ذات قصد نفعي، أو إشادة بالذات، وأزهد الناس في تقدم الصفوف، بلد الرئاسة والشرف، وبهذا يكون مجتمع مكة قد شهد على نفسه، وشهد عليه التاريخ بأنَّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي كان وحيد قومه في خصال الخير، وأسباب الفضل والعدل، ومؤهلات الزعامة. ولو تحرينا الإنصاف قلنا: إن محمدًا ﷺ كان ولم يزل وحيد الناس، قاطبة، فيها[١].

ونحن الذين نؤمن بالله ربًا وبمحمد نبيًا لا نطلب الدليل على صدق ذلك. ولكن الله أقام الأدلة - على ما ذكرناه - في أحداث اجتماعية هامة، لمن شاء أنَّ يتفكر ويتدبَّر لتظهر هذه المزايا على حقيقتها في مجال التطبيق والعمل في أصدق مظهر في الواقع. وخير حادثة اجتماعية يحيط إطارها بهذه المزايا حادثة الاحتكام إلى رسول الله ﷺ في رفع الركن إلى مكانه من الكعبة، عند تجديد بناءها قبل المبعث بخمس سنوات[٢].

وقد كانت الأمانة سر الرضا، وهي صفة أوضحنا مدلولها ومضمونها، وتفرد رسول الله بها. وكانت قريش تبتغي حكمًا، مجردًا من الهوى، قادرًا على أنَّ يلقي عواطفه العصبية جانبًا، وأن يعلو على خصومتهم، فيقضي بينهم ولا يدخل فيها. ولم يكن رسول الله ﷺ إلا قرشيًا هاشميًا من البيت الذي يلي شؤون الكعبة، وما هو بالغريب عن قضايا قومه، وما يحزبهم، ومع ذلك رأت فيه مختلف البطون من قريش ضالتها المنشودة، ومفتاح الفرج في أزمتها العصبية، فهذا الأمين في اعتبارها إذن: فوق العصبية المحليَّة؛ رجلٌ يستطيع كل قرشي أنَّ يجد عنده الإنصاف والعدل والنزاهة، لا يُخشى منه تحيُّزٌ، ولا ميلٌ عن الحق إلى القريب، أو الصديق، أو

(١) النبوة: اصطفاء وقدوة صـ ٣١

(٢) سيرة ابن هشام: م١ ص١١٧.

النصير. حقًا لقد احتكمت قريش إلى رجلٍ منها، ولكنَّه في هذا التقدير فوقها كلها؛ رجلٌ لا يعبد ما تعبد، وليس من دينها في شيءٍ، هو عندها مثال العدالة والاستقامة والصدق. وعرف رسول الله ﷺ ما في نفوس القوم، وما هم فيه من خلاف، وحضره الحل المرضي توفيقًا من الله وعونًا. أمر بثوب، فبسط ووضع الركن فيه، وجعل ممثلي البطون على أطرافه، وأمرهم أنَّ يرفع كلٌ من ناحية، حتى إذا حاذوا مكانه، رفعه بيديه الطاهرتين، ووضعه في مكانه وبنا فوقه.

لقد كان رافع الركن إلى موضعه ابن إبراهيم عليه السلام، الذي دعا ربه مخلصاً ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٩)فوضعه محمد - ﷺ- في المكان الذي وضعه فيه أبوه من قبل أول مرة عندما رفع البيت.

ورضيت قريش أ يفوز كلٌ منها من الشرف بنصيب، وبردت بذلك أكبادها ولكنها رضيت بأمرٍ أعلى وأبعد مغزى ؛ رضيت أنَّ يفوز بالشرف كله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إذ كان هو الرافع للركن حقيقةً.

لقد كان في هذه الحادثة معتبرٌ، لو استطاع خصوم رسول الله - ﷺ- أنَّ يردعوا نفوسهم بعد المبعث، وأن يحكِّموا المنطق والعقل، كما فعلوا عند تحكيم رسول الله ﷺ ، ولكنَّهم أطلقوا لغرورهم ولهواهم العنان، وركبوا الشر، فانتهى من لم يسلم منهم إلى سوء المصير.

إن الدرس البليغ الذي كان بإمكان قريش أنَّ تتعلمه من نجاح رسول الله ﷺ في حل أزماتها في الجاهلية هو أنَّ هذه القبيلة ذات الحيوية والإمكانات لا يمكن أنَّ يستقيم أمرها وتتحد كلمتها، وتبلغ الفلاح، حتى تتخلى عن العصبية الضيقة وتذعن للحق وتنقاد للناصح الأمين، ولقد دعاها رسول الله ﷺ بعد سنوات ثمان من بناء الكعبة إلى الحق، فاستنفرت عنه، فذاقت ما ذاقت من الويل والخسارة، ولم يصلح شأنها ولم تبلغ عزها الحق إلا عندما أسلمت له يوم الفتح وانقادت والتفت حوله كما التفت حوله يوم رفع الركن[١].

(١) النبوة: اصطفاء وقدوة صـ ٣٢

المبحث الثاني:
الإعداد الدعوي للنبي -ﷺ -
المطلب الأول
قيام الليل وتلاوة القرآن

لعظم شأن صلاة الليل قال الله لنبيه - ﷺ - : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل × قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا × نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا × أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل: ١ - ٤).

«يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ.. قُمِ..» قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة.. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد»[(١)].

وقد أمره الله تبارك وتعالى» بالقيام والتشمير في الليل لإحيائه بالصلاة والعبادة وتلاوة القرآن، وترك الهجوع إلى السجود والركوع، وهجر المنام إلى ما فيه نيل البغية وبلوغ المرام، إنَّه - عزَّ وجلَّ - يعدُّه ويهيئه بقيام الليل وفيه ما فيه من المجاهدة والمصابرة ليؤهِّله إلى أداء الرسالة لقوم قوى مراسهم واشتد عنادهم[(٢)].

ولقد عرف رسول الله- ﷺ- حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة- رضي الله عنها- وهي تدعوه أنَّ يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة»[(٣)] ! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق! .. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.. قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل.. قيامه للصلاة وترتيل القرآن، وهو

(١) في ظلال القرآن صـ ٦/ ٣٧٤٤،

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط/ الأولى، (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م) - (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) ١٠/ ١٦٣٠

(٣) أورد هذا الأثر أصحاب السير وليس حديث.

مد الصوت به وتجويده. بلا تغن ولا تطر ولا تخلع في التنغيم[1].

وقد صحَّ عن وتر رسول الله-ﷺ - بالليل أنَّه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة. ولكنَّه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلًا، يرتل فيه القرآن ترتيلًا.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سعد بن هشام.. أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله- صلى الله عليها وسلم-؟ قال: نعم. قال: ائت عائشة فسلها، ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك ... ثم يقول سعيد بن هشام: قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله- ﷺ- قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإنَّ خلق رسول الله- ﷺ- كان القرآن.

فهممت أنَّ أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله-ﷺ - قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قالت: ألست تقرأ هذه السورة: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» ؟ قلت: بلى. قالت:

فإنَّ الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله- ﷺ- وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم. وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهرًا. ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة.. فهممت أنَّ أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله- ﷺ- فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله- ﷺ- قالت: كنا نعدُّ له سواكه وطهوره، فيبعثه الله كما شاء أنَّ يبعثه من الليل، فيتسوَّك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن، إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو، ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده، ثم يدعوه، ثم يسلم تسليمًا يسمعنا. ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله-ﷺ - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك تسع يا بني. وكان رسول الله- ﷺ- إذا صلى صلاة أحبَّ أنَّ يداوم عليها. وكان إذا شغله عن قيام الليل

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤٤ .

نومٌ أو وجعٌ أو مرضٌ صلى من نهار اثنتي عشرة ركعة. ولا أعلم نبي الله- - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان ... »[(١)] .

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه، هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف.. والقرآن في مبناه ليس ثقيلًا فهو ميسَّر للذكر. ولكنَّه ثقيلٌ في ميزان الحق، ثقيلٌ في أثره في القلب: «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» (الحشر:٢٩) فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه.. وإنَّ تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل.

وإنَّ التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل.

وإنَّ الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحيَّة والجامدة على النحو الذي تهيَّأ لرسول الله- ﷺ- لثقيلُ، يحتاج إلى استعداد طويل.

وإنَّ الاستقامة على هذا الأمر بلا تردُّد ولا ارتياب، ولا تلفُّت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوِّقات، لثقيلٌ، يحتاج إلى استعداد طويل[(٢)] .

وإن قيام الليل والناس نيامٌ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكنٌ، وكأنَّما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في

---

(١) رواه أحمد في المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)،مسند عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما ٣١٦/٤٠، رقم ٢٤٢٦٩ المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م (٣١٥/٤٠)رقم (٢٤٢٦٩)، صحيح، انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى : ٦٠٦هـ)، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، الطبعة : الأولى (٩٧/٦).

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٤٤/٦

الليل الساجي.. إنَّ هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

«إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا» هي ما ينشأ منه بعد العشاء والآية تقول: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً» : أي أجهد للبدن، «وَأَقْوَمُ قِيلًا» : أي أثبت في الخير .. فإنَّ مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدِّ النهار، أشدُّ وطأ وأجهد للبدن ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابةً لدعوة الله، وإيثار للأنس به"[(١)] .

وقال سبحانه للنبي - ﷺ - : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩)، جاء في «التيسير» وفي هذا الخطاب دعوةٌ من الله لنبيه أنَّ يستعين بإقامة الصلاة على تبليغ الرسالة، وأن يستعين بالدعاء الصالح على أداء الأمانة»[(٢)]، وفي موضع آخر قال: «وذلك لأنَّ العبادة بكافة أشكالها وأنواعها عونٌ عظيمٌ على تحمُّل الأعباء الجسام، ولا سيما أعباء الرسالة، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة : ٤٥).

والتنويه « بعبادة الليل » في هذا المقام، وحضِّ الرسول عليها بالخصوص، يناسب ما يمتاز به الليل من السكون والهدوء، وما يساعد عليه من جمع الفكر والتأمل والتدبُّر في آيات الله القرآنية والكونية، والاستغراق في مناجاته دون انقطاع، على حدِّ قوله تعالى في سورة﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، بمعنى أنَّ قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع للخاطر عند تلاوة القرآن[(٣)]،

(١) في ظلال القرآن، صـ ٦/٣٧٤٥.

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ٣/٤١٠.

(٣) المصدر السابق ٦/٣٥٥.

وقال صاحب التفسير القرآني: » فتهجد النبي بالقرآن الكريم فى الليل هو تكليف خاص بالنبي، ليرفعه الله بهذه العبادة الواجبة عليه مقامًا فوق مقامه«[(١)].

وقال -سبحانه وتعالى-:﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾(الإنسان: ٢٦)، وقال - سبحانه وتعالى -:﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (ق: ٤٠)، وقال - سبحانه وتعالى -:﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٩)، وحث عليها النبي-ﷺ- بقوله: (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)) [(٢)].

وقد اعتنى النبي -ﷺ- بقيام الليل حتى تفطرت قدماه، ليكون زاداً له في حمل الدعوة وتبليغها، فقد كان يجتهد في القيام اجتهادًا عظيمًا، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي -ﷺ- كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنعُ هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أحبُّ أنَّ أكون عبداً شكُوراً)) [(٣)]، وعن المغيرة - رضي الله عنه- قال: قام النبي -ﷺ- حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً)) [(٤)].

(١) تفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة ٥/٦١٣.

(٢) أخرجه مسلم، باب فضل صوم المحرم، ٢/ ٨٢١ برقم ١١٦٣ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٣) أخرجه البخاري، باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ٦/١٣٥، برقم ٤٨٣٦.

(٤) صحيح البخاري، باب قيام النبي ﷺ الليل، ٣/١٤رقم ١١٣٠، وصحيح مسلم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ٤/٢١٧٢، رقم ٢٨٢٠.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة

والقدوة الحسنة: هي الجانب العملي في حياة النبي -ﷺ- في كل شؤونه، في عبادته ومعاملته وأخلاقه، وقد وصفت عبادته السيدة عائشة -رضي الله عنها- أنه -ﷺ- كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال «أفلا أحب أنَّ أكون عبدًا شكورًا»[(١)]، وقال تبارك تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١) فقد كان فقه النبي -ﷺ- في تربية الأمة وإقامة الدولة شاملًا ومتكاملًا ومتوازنًا، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات وإحياء الشعوب وبناء الدول، فتعامل -ﷺ- مع هذه السنن في غاية الحكمة وقمة الذكاء، كسنة التدرج، والتدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس، وغرس -ﷺ- في نفوس أصحابه المنهج الرباني وما يحمله من مفاهيم وقيم وعقائد وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتأثرون بمنهجه في التربية غاية التأثر، ويحرصون كل الحرص على الالتزام بتوجيهاته فكان الغائب إذا حضر من غيبته يسأل أصحابه عما رأوا من أحوال النبي ﷺ وعن تعليمه وإرشاده وعما نزل من الوحي حال غيبته، وكانوا يتبعون خطى الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقنونه لأبنائهم ومن حولهم[(٢)].

وفي النص القرآني إرشادٌ عظيمٌ من الله للمؤمنين أنَّ يجعلوا رسول الله ﷺ قدوةً حسنةً لهم، يقتدون به في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، لما للقدوة الحسنة من أثر في النفس يشجع على ارتقاء درجات الكمال المكتسب بالعمل والاجتهاد.

(١) سبق تخريجه صـ ١٩.

(٢) السِّيرةُ النَّبوية - عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط/ السابعة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م ١/٩.

وخاطب الله رسوله محمدًا بعد ذكر طائفة من الرسل بقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٥).

أي على هداهم ونهجهم اسلك يا محمد، وحينما اشتدَّت صنوف الأذى على الرسول - ﷺ- من قومه خاطبه الله بقوله﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)أي ولا تستعجل لهم العذاب.

وخاطب الله رسوله والمؤمنين معًا بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الممتحنة: ٤-٦)

ففي هذا النص إرشادٌ من الله للرسول والمؤمنين أنَّ يتخذوا إبراهيم والذين آمنوا معه أسوةً لهم في التبرؤ ممن كفر بالله، وفي معاداة من حادَّ الله، وإعلان بغضهم في الله حتى يؤمنوا، واستثنى الله من هذه الأسوة تعهد إبراهيم لأبيه الكافر بأن يستغفر له، فلم يأذن الله بمثل ذلك(١).

وقد خصَّ الله أنبياءه بتلك العناية الكبرى والحفاوة العظمى، وصنعهم كما أراد، كما قال لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩).

لأي دورٍ عظيمٍ أعدهم الله إذ صاغهم الصياغة النبوية الفريدة؟

---

(١) الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، دار القلم- دمشق، الطبعة: الأولى المستكملة لعناصر خطة الكتاب ١٤١٨هـ-١٩٩٨م صـ ٨٣.

لو علمنا جلال المهمة الملقاة إليهم لعرفنا بعض السر.

لقد أُلقِيَ إليهم واجبٌ ثقيلٌ ليس مثله في المهمات العظام شيءٌ أبدًا، إنَّه الواجب الذي يملي عليهم أنَّ يبدؤوا عصرًا جديدًا ملؤه النور، ومدنيَّةً محدثةً شعارها العلم والتقدم وأن يكونوا أمة هادفة إلى إنقاذ الإنسان وإسعاده بالبلوغ به مرضاة ربه.

إنَّ الله يختار للنهوض بهذه المهمة التي تنوء بأمم الأرض كلها رجلًا فردًا.

فكيف أدى النبي ما عهد به إليه، وأنفذه على وجهه، فتوفاه الله وقد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة فجعله في الخالدين؟

إنَّ الإلمام بذلك يعينٌ سبلًا وحدها تسلك، وطرقًا وحدها تُتَبع في إحياء حضارة الإنسان بالعلم والإيمان، وما من مؤمن يطَّلع على مواقف الرسول الخالدة ﷺ في القرآن والسيرة إلا يتيقن أنَّ استيعاب روح هذه المواقف وتمثلها هو الخطة الوحيدة في تكوين مجتمع إسلامي صحيح سليم(١).

إنَّه واجب الاقتداء إذ ثبت الاصطفاء وإذا كان العسير علينا أنَّ نحيط بتلك المواقف فالإشارة إلى بعضها كاف:

أ. اقتراب النبي ﷺ من ربه:

وأول هذه المواقف وأعظمها خطرًا هو انفصال الرسول -ﷺ- نفسيًا وروحيًا عن عصر الجاهلية والاتجاه بالقلب والنفس إلى العالم الأعلى، إلى الله، وهذا المسلك مبدأ الانطلاق في تكوين الأمة وبزوغ حضارة الإسلام وقد سمى الله تعالى هذه الطريقة بالاقتراب. قال تعالى لمحمد -ﷺ- : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩)، ويغدوا النبي بانفصاله عن الوقع الجاهلي مركز إشعاع متجدد ويجتذب إليه عناصر مجبولة على الخير نافرة من أذى الجاهلية فتسبح في فلك النبي وتخضع

(١) النبوة: اصطفاء وقدوة صـ٣٥

لجاذبيته وتستلم منه القيم، والمثل فتتفجر إمكانياتها بتأثيره في طريق الخير، وتنصرف قلوبها إلى الله تريد وجهه. إنَّهم الرجال المعرفون بالصحابة الذين صنعوا بقيادة الرسول ﷺ لهم تاريخ الدعوة الأول، وقد صدر الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالتزام هذه الفئة التي هي نواة المجتمع الإسلامي: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)

وأوصى الله نبيه والمؤمنين بالانقطاع إليه فقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (المزمل: ٨) فكان التبتُّل فعَّال الأثر في سيرة الرسول الكريم إذ جعله في منأى عن الزلل والخطأ. فجاءت سيرته ﷺ وحياته في المقام الأعظم من الكمال والتمام، والبعد عن النقصان والانحراف. ولم يفارق هذه التبتيل مرحلة من مراحل الدعوة وموقفًا من مواقف الرسول ﷺ العامة، والخاصة، ألم تكن قرة عينه في الصلاة ألم يكن يقوم الليل حتى تتورم قدماه؟

ولقد سرت هذه الروح إلى الصحابة، رضي الله عنهم فحققوا خالد المآثر وكانت عندهم شيئًا قليلًا فيما عرفوا الله من حق عليهم[١].

ب - حب النبي صلى الله عليه وسلم لربه -سبحانه وتعالى-:

والاقتراب كما أوضحنا عمليةٌ نفسيةٌ خالصةٌ لا بدَّ في استمرارها من قوة في القلب ذات ديمومية وتوهُّج وهذه القوة هي الحب؛ حب الرسول ﷺ لربه -تبارك وتعالى- حبًا يغمر سائر العواطف والنزاعات ويتألق صدقًا ونقاءً. وهو حجر الأساس في الإيمان، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين»[٢].

ذلك أنَّ حبَّ الرسول هو حبٌ للعقيدة التي أمر بنشرها في الأرض وقد قال

(١) النبوة اصطفاء وقدوة، صـ ٣٥.

(٢) رواه البخاري، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان ١٢/١، رقم ١٤، ١٥، ومسلم، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد، والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ٦٧/١، رقم ٧٠.

تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١) .

إنَّ حبَّ العقيدة في الإسلام فوق حبِّ النفس والحياة.

ج - العقيدة فوق الثروة والمال:

فلا غرو من أنَّ يجعل الله العقيدة فوق المادة والدعوة فوق المال.

إنَّ الثروة والموارد الاقتصادية لا بدَّ منها في الإنشاء والتعمير اللذين هما ثمرة من ثمار العقيدة. ولكن الله يريد أنَّ يهيمن الدين على القوى المادية وأن يسخِّرها فيما ينفع الناس ويأبى أنَّ يعلو الشغف بالثروة على حبِّ الله والرسول ويغضب أنَّ يتخذ الدين مطيَّة استغلالٍ يحوِّره أصحاب المصالح الخاصَّة فيما يعود عليهم بنفعٍ شخصي. ولعلَّ هذا يفسر لنا حكمة الله في اختيار الأنبياء والقادة من غير ذوي الثروات الذين يرفعون المصلحة الخاصة على العقيدة والمصلحة العامة وينفصلون عن الأمة في قضيتها الكبرى. ولهذا قال نبي بني إسرائيل: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٤٦) وكان منهم ما توقعه إذ اعترضوا على ملكية طالوت ولم يعرهم الله اهتمامه فنصر عبده طالوت من غير مدد فيهم ومن غير ثرواتهم. وإنَّ بعضهم ليحارب النبي المختار حفاظًا على مصلحته أو مصلحة عشيرته وهل يسفر موقف أبي سفيان قبل الفتح، وموقف أبي جهل بغير هذا؟.

والإسلام لا يحرِّم الغنى ولا يزهد فيه ولكن يجعله في خدمة العقيدة، وقد رضي الله الغنى لبعض أنبيائه والملوك الصالحين عندما جعل نفوسهم فوق المال، فخلت قلوبهم من محبة الثروة، وسمت على المادة فجعلوا العقيدة فوقها وكانت عندهم للدين خادمًا وتبيعًا. هذا نبي الله سليمان سأل ربه ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاه العجب العجاب، وفجر الكنوز بين يديه واستخرجت له الثروات من جوف الأرض، ومن قاع البحار فكانت عنده كلها خارج قلبه، ولم يشغله إلا بحب الله وكلمة التوحيد ولم تستطع هذه الأموال الخلابة أنَّ تظفر من قلبه بشيءٍ وكان

هذا ابتلاء لسليمان أيَّما ابتلاء، وظهر هذا جليًّا في موقفين من مواقفه: أولًا إذ جاءه وفد بلقيس بهدية ثمينة ظنًا منها أنَّ سليمان ملكٌ كسائر الملوك يرضي المال طموحه فكان جوابه ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل: ٣٦) ولو كان سليمان جمَّاعًا شَرِهًا لارتضى بها، فإنَّ من تسلَّط عليه حب المال لا يشبعه إلا التراب. والموقف الثاني: إذ لام نفسه على انشغاله باستعراض خيل الجهاد حتَّى توارت الشمس بالحجاب أو فاتته الصلاة فأدَّب نفسه أيَّما تأديب؛ أكبَّ بنفسه على سوق الخيل وأعناقها وكان قد أجهدها الجري والسباق ونضحت بالعرق فطفق يمسحه عنها، يفعل ذلك وهو الملك بين يديه الإنس والجن تخدمه، قهرًا لنفسه التي استمتعت بالخير برهة فنسيت ذكر ربها وإذلالا لها وتأديبا[1].

وتتجلَّى هذه الظاهرة أيضًا في موقف الفاتح الصالح ذي القرنين إذ عرض عليه أهل ما بين السدين مالًا عظيمًا يؤدُّونه سنويًا له ليبني لهم سدًا يحميهم من غارات يأجوج ومأجوج فرفض العرض ودعاهم إلى الاعتماد على أنفسهم ومساعدته بالرجال والمعادن لينفعهم بخبرته ويقيم لهم ردمًا خيرٌ من السد: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (سورة الكهف الآية: ٩٥) .

لقد كان سليمان وذو القرنين ﷺ أغنى أهل الأرض في يومهم وكان المال لا يدخل في حسابهما في شيء إلا بما ينفع عباد الله وبما يرضي الله. واختار الله محمدًا -ﷺ- نبيًا لا مال عنده ولا متاع وقال الأثرياء من العرب: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف الآية: ٣١) ولما رأوا الدعوة تنتشر انتشار البرق علموا أنَّ ليس معدن العظمة المال، وأنَّ العظمة الحقيقية في القيم الربانية وفي الشرع الإلهي الذي يستقر في قلب ويجري عملًا صالحًا وقد تدفقت

(١) النبوة اصطفاء وقدوة، صـ ١٩٤.

الأموال على رسول الله - ﷺ- فلم يعلق بقلبه شيءٌ منها ولا تزوَّد بغير زاد سنة. نهض مرة بعد التسليم مسرعًا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال: «ذكرت شيئًا من تبر عندنا فكرهت أنَّ يحبسني فأمرت بقسمته»(١).

ورأت أمهات المؤمنين الأموال تحمل إلى رسول الله - ﷺ- فتاقت نفوسهن إلى التوسعة ورغبن فيها إلى رسول الله - ﷺ- وأبى الرسول إلا أنَّ يكون هو وبيته مثلًا على الرضا بالكفاية وجاءهن من الله التخيير؛ إما الصبر على رسول الله على ما أراد الله له من تقديم الآخرة على الدنيا وإما التسريح والتمتيع، فاخترن الله ورسوله.

ومن ثم كانت دعوة الأنبياء خالصة لله لم يبتغوا بها منفعة لأنفسهم أو جزاء دنيويا. وما من رسول إلا قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٩)(٢)..

(١) رواه البخاري، باب/ من صلى بالناس، فذكر حاجة فتخطاهم ١/ ١٧٠، رقم ٨٥١.

(٢) النبوة اصطفاء وقدوة، صـ ١٩٤.

المطلب الثالث: الصبر والثبات والشجاعة

وقد خاطب الله نبيه -ﷺ- وأمره بالصبر فقال: « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ » مما يغيظ ويحنق[١]، وأن يصبر على ما يقوله من كذَّبه من سفهاء قومه[٢]، وقال تعالى آمراً نبيه - ﷺ- : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) (المدثر:٧) أي اصبر على أذى الكفار ولوجه الله سبحانه وتعالى[٣].

وقد صدر الأمر الإلهي للنبي - ﷺ- بالتزام هذه الفئة التي هي نواة المجتمع الإسلامي: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف: ٢٨)(٤).

(وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) (المزمل:١٠) وأن يهجرهم هجرًا جميلًا وهو الذي لا عتاب معه كما يقول ابن كثير[٥]، وأن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة كما يقول الزمخشري[٦].

وقال سيد قطب رحمه الله: الهجر الجميل الذي لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة- وبخاصة في أوائلها.. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير.

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر. والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة ولعباده المؤمنين

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٧٤٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، ط/ الاولى . دار الحديث ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م . (٨/ ٢٥٦) .

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط الأولى ١٤٢٣هـ، دار المعرفة - بيروت (٤/٦٤٦) .

(٤) النبوة اصطفاء وقدوة ٣٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٦) .

(٦) الكشاف (٤/ ٦٣٩، ٦٤٠) .

برسله. وما يمكن أنَّ يقوم على هذه الدعوة أحدٌ إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جنته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهادٌ.. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها.. وجهادٌ مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم. ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة، وتتفلَّت، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها. والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبًا! اصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا»[(١)]، وإن تأنس بالرسل فلتأنس بما كانوا عليه من صبر وثبات وإقدام.

رجل أعزل نازل وحده أمةً حتى انقادت له على الإسلام. فبأي سلاح فرَّق النبي صفوف الخصوم الألداء؟ إنه الصبر والثبات وإني لأحسبه أمضى سلاحٍ في دكِّ أسوار الجاهلية والوثنية.

كانت معركة الرسول - ﷺ- بين فئتين غير متكافئتين كما قضت حكمة الله أنَّ ينازل الرسول وحده قوة مناوئة ذات عدد، فلابد من الصمود في وجهها صمودًا باسلًا يكشف عن ثبات الحقيقة التي يدعو إليها. ويفضح زيف العقائد التي يتشبث بها الجاهليون وما من نبي إلا جعل الله في عزيمته من الثبات ما تزول منه الجبال وما يزول؛ موقف راسخ، ملؤه الحزم والتصميم والإقدام يريد أنَّ يفتح قلوبًا مغلقة، وأن ينفذ إلى ضمائر مظلمة وفي نفسه قوة لا تقهر وإرادة لا تنثني، إذ آمن أنَّ الله معه، هذا التحدي نجده في إنذار هود قومه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦).

فالصبر إذن ميدان التجربة، وهو الكاشف الحقيقي للأفكار المتصارعة

(١) في ظلال القرآن (٣٧٤٧/٦) .

وفائدتها الكبرى هو هذا الالتحام والنزال بين العقيدتين وكان من الهيِّن على رسول الله أنَّ ينسحب بالفكرة، والرسالة إلى أرض، لا يلقي فيها مقاومة ولكنَّه عندئذٍ لا يربح المعركة، وما يكون كسب المعركة إلا باللقاء، ولهذا أمر محمد - ﷺ - بنوعٍ خاص من الصبر هو الصبر الجميل. وهذا الصبر جميل في أسلوبه وفي عواقبه اتصال بالمناوئين وهجوم على قلوبهم بالعقيدة ومجابهتهم بالحق، بما لدى الرسول من الحكمة والموعظة الحسنة حتى إذا طاشت أحلامهم وثاروا به ثبت لهم ولم يتراجع حتى يرهبهم صبره وتهزمهم عقيدته ولا أبلغ من تصوير هذا الواقع من انهزام الكفار انهزام عقيدة ونفس من قوله تعالى فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المدثر: ٥٠).

ومن ثمَّ تبدو مواقف النبي -ﷺ- خارجةً عن طاقة أيِّ إنسان، ولو كان شديدًا ولعلَّ هذه البطولة هي التي تكسبه الأنصار بل تنتزع الرجال من صفوف الخصوم إلى صفوف الأنصار تأخذهم روعة الموقف البطولي، فيعبرون البرزخ إلى معسكر النبي -ﷺ- . ألم يعبر عمر و خالد وغيرهما البرزخ جهارًا.

إنَّ هذه المواقف الخالدة في عالم البطولة فرضت احترام النبي على الأعداء، فقال فيه أحد معارضيه: «هو القرم[١] الذي لا يقدع أنفه»[٢] وهي التي بعثت الإعجاب في عمه أبي طالب وعشيرته، فاحتملوا من أجله ما احتملوا.

ولكني - معذرة - إذا أطلقت اسم البطولة على صبر النبي - ﷺ - ، فلم أظفر بكلمة أبلغ في الدلالة منها، فإنَّ بطولة محمد والأنبياء عليهم السلام، ليست كبطولة

(١) القرم: الفحل المصعب الذي أقرم فصار مقرما، المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ)١/٤٧٧.

(٢) ينسب هذا القول لأبي سفيان قبل إسلامه وينسبه بعضهم لورقة بن نوفل وكان من المشجعين للرسول. انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ ٨/٢٦٠، تصحيفات المحدثين، أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (المتوفى: ٣٨٢هـ)، المحقق: محمود أحمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢، ١/٢١٨

الرجال الممتازين الأقوياء ليست كبطولة القياصرة والأباطرة، وقادة الجيوش من قيصر روما ونابليون إلى مونتغمري وروميل وغيرهم، فإنَّ أمثال هؤلاء كانوا أبطالًا لأنفسهم. صفق لهم الناس لحظات، فما زالوا أو سقطوا لم يبق منهم إلا أشباح باهتة، ولم يبق من بطولاتهم إلا ذكرى كالصدى الضائع في مجاهيل الأرض، أما محمد ﷺ فلم يكن بطلًا لنفسه، وإنما لخير الإنسانية وهداها، فما في بطولته صلف، ولا كبرياء، ولا طغيان ولا تمجيد لذاته بل كانت بطولته العدالة، والحق والإنصاف والتقوى. ولذلك ما زالت مواقف صبره وجهاده، تفيض من القيم الإنسانية البطولية، ولم تستطع العصور، ولن تستطيع أنَّ تفقدها من جدارتها شيئًا.

وخير من كلمة البطولة اسم النبوة؛ فالنبوة فوق البطولة، وما بينهما، كما بين الأرض والسماء.

المطلب الرابع : الذكر والدعاء

وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه -ﷺ- بالذكر والتسبيح والتبتل والانقطاع لمناجاة ربه تبارك وتعالى؛ لأن في الذكر والمناجاة أنسٌ وقربٌ من المولى عز وجل، وفيه زادٌ روحيٌ ومعنويٌ يعينه على تحمل تكاليف ومشقة الدعوة إلى الله تعالى: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» .. فعلى مدار اليوم. عند اليقظة من النوم. وفي ثنايا الليل. وعند إدبار النجوم في الفجر.

هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب. والتسبيح زادٌ وأنسٌ ومناجاة للقلوب. فكيف بقلب المحب الحبيب القريب؟؟؟ (١)

وقال تعالى: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) (طه: ١٣٠).

الرضا غاية كل إنسان، فكلٌ يغدو بحثًا عن السعادة والرضا، ويسلك الناس في ذلك سبلًا شتى، وهذه الآية تبين لنا أقصر طريق وأيسره لتحصيل تلك الغاية - لعلَّك ترضى-.

وقد اختلفت القراءة في كلمة -ترضى- فقد قرئت بفتح التاء كما قرئت بضمها: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، متفقتا المعنى، غير مختلفتين، إذ المآل فيهما واحد؛ لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه وإذا رضيه فقد أرضاه (٢).

وقيل قراءة ضم التاء(٣) تفيد معنى لا تفيده القراءة بالفتح وهو أنَّ -تُرضى- بالضم تفيد أنَّ تكون مرضيًا عند الله. كقوله تعالى (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) (مريم: ٥٥).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٠٢/٦

(٢) جامع البيان لمحمد ابن جرير الطبري (٤٠١/١٨)

(٣) قرأ الكسائي وأبو بكر لعلك ترضى بضم التاء، والباقون بفتحها نافع وابو عمرو وحفص والقراءة سبعية متواترة، حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة/ مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢ - ١٩٨٢، تحقيق : سعيد الأفغاني صـ ٤٦٦.

قال الرازي: «و المراد بالتسبيح هنا الصلاة، وقيل: هو على ظاهره، فلا يبعد حمله على التنزيه والإجلال، والمعنى: اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات، وهذا القول أقرب إلى الظاهر؛ لأنه تعالى: صبّره أولًا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذي يليق بذلك أنَّ يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات»(١).

وقال محمد رشيد رضا: «والأظهر في أمثال هذه الآيات أنَّ ذكر الله - تعالى - وتسبيحه المطلق فيها عام، فيدخل فيه الصلاة وغيرها»(٢).

من ثمرات التسبيح في القرآن: إن أردت رضوان الله، فسبح لقوله تعالى: (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) (طه: ١٣٠).

وإن أردت الخلاص من النار فسبِّح لقوله تعالى: (سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: ١٩١).

وإن أردت الفرج وكشف الغم فسبح؛ لقوله تعالى عن يونس: (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ × فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)(٣).

لماذا التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار؟

يقول القشيري في لطائفه: « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ: أي فى صدر النهار ليبارك لك فى نهارك، وينعم صباحك.

«وَقَبْلَ غُرُوبِها: أي عند نقصان النهار ليطيب ليلك، وينعم رواحك. وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ: أي فى ساعات الليل فإنَّ كمال الصفوة فى ذكر الله فى حال الخلوة.

---

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ ٢٢/١١٣

(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م ١٢/١٥٤

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٨٧-٨٨.

«وَأَطْرافَ النَّهارِ» أي استدم ذكر الله فى جميع أحوالك»[١].

ويذكر الزمخشري نكتة هنا: » وهي أنَّ أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدوء الرجل والخلو بالرب. وقال الله عز وجل: (إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا)، وقال: (أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِما)

ولأنّ الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشدُّ وأشقُّ، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله. - أى : اذكر الله في هذه الأوقات، طمعًا ورجاءً أنَّ تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك[٢].

وقد ذكر الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ حول هذه الآية هنا مالم يسبق إليه غيره، ولا يمكن الاستغناء عنه، إذ يقول: أي: سبِّح تسبيحًا دائمًا مُتواليًا، كما أنّ نعمَ الله عليك متوالية لا تنتهي، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة و النوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، الأكل نعمة، والشرب نعمة، البصر والسمع، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نعَم.

خُذْ مثلًا حركة اليد التي تبطش بها، وتأمّل كم هي مرنة مطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك، أصابعك تتجمَّع وتمسك الأشياء دون أنَّ تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله في حركة يده، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله، ساعتها يعرف أنَّها عمليةٌ صعبةٌ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

لذلك؛ فالحق سبحانه وتعالى يعطينا زمن التسبيح، فنعيشه في كل الوقت

---

(١) لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ظ/ الثالثة ٤٨٧/٢

(٢) الكشاف ٩٦/٣، . البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ ٥ ٧/ ٣٩٨.

﴿بَلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار﴾»(١) (طه: ٣٠).

- يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة: «اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك- فهذا الذي يستحق المراقبة، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة، فلا تُكنْ مراقبته لمن يغفل عنه، أو ينصرف، أو ينام عنه.

-واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك- فإذا شربتَ كوب ماء فقُلْ: الحمد لله أنَّ أرواك، فساعةَ تشعر بنشاطها في نفسك قل: الحمد لله. وساعةَ أنْ تُخرجها عرقًا أو بولًا قل: الحمد لله، وهكذا تكون موالاة حمد الله، والمداومة على شُكْره.

-واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه- فطالما أنَّك لا تستغني عنه، فهو الأَوْلَى بطاعتك.

-واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه- وإلاَّ فأين يمكنك أنَّ تذهب؟

ما سر الإطلاق في آناء الليل والتقييد بأطراف النهار؟

لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل، فقال ﴿آنَآءِ الليل﴾ طه: ١٣٠ وحدده في النهار فقال ﴿وَأَطْرَافَ النهار﴾طه: ١٣٠ ؟ قالوا: لأن النهار عادةً يكون محلًا للعمل والسَّعْي، فربما شغلك التسبيح عن عملك، وربنا يأمرنا أنَّ نضربَ في الأرض ونُسهم في حركة الحياة، والعمل يُعين على التسبيح، ويُعين على الطاعة، ويُعينك أنْ تلبي نداء: الله أكبر.

أمّا في الليل فأنت مستريحٌ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله في أيِّ وقت من أوقاته.

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح، فيقول ﴿لَعَلَّكَ ترضى﴾ (طه: ١٣٠) ونلحظ أنَّ الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية، فلم يقُل: لعلِّي أرضى، قال:

(١) تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم ٩٤٥٢/١٥.

لعلك أنت ترضى، فكأن المسألة عائدةٌ عليك ولمصلحتك.

والرضا: أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمِّل، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد، وحقّق ما يرجو، كما تقول لصاحبك: أأنت سعيد الآن؟ يقول: يعني: يقصد أنَّه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك: سعيد والحمد لله.

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول: ربنا يُديم عمرك، جزاك الله خيرًا.

إذن: رضا الإنسان له مراحل؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي كما روى النبي - ﷺ - : «إن الله يتجلى على خَلْقه في الجنة: يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من العالمين، قال: أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وهل يوجد أفضل من ذلك؟ قال: نعم، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبدًا».

وهكذا يكون الرضا في أعلى مستوياته. الغاية من التسبيح إذن الذي كلّفك ربُّك به أنْ ترضى أنت، وأن يعودَ عليك بالنفع، وإلا فالحقُّ سبحانه مُسبَّح قبل أنَّ يخلق، أنت مُسبّح قبل أنَّ يخلق الكون كله، ولا يزيد تسبيح في ملكه تعالى شيئًا. ويتم لك هذا الرضا حين تُرضي الله فيرضيك[1].

ويقول تبارك وتعالى لنبيه -ﷺ- مؤكدًا له أنَّ يذكر ربه في الصباح والمساء: (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (غافر:٥٥)، ويقول: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)(طه:١٣٠)، ويقول تبارك وتعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) (الطور: ٤٨).

فالدعاء بابٌ عظيمٌ، إذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات.. وهو من أعظم المؤهّلات لحمل الرسالة وأداء الأمانة، على حسن الصلة

(١) تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي ٩٤٥٢/١٥.

بالله، وكثرة الدعاء؛ لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر [١].

الخاتمة والتوصيات

وبعد هذا البحث الموجز فقد خلص الباحث للنتائج الآتية:

١. لقد أعدَّ الله سبحانه وتعالى النبي محمد -ﷺ- على عينه وتحت رعايته، واصطفاه من بين سائر النبيين، وأيده بالمعجزات والدلالات والبينات، وأهَّله بمؤهِّلات تمكِّنه من حمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين.

٢. إن الله سبحانه وتعالى أعد نبيه -ﷺ- لحمل الرسالة إعدادًا نفسيًا، وذلك من خلال حادثة شق الصدر، وتسليم الحجر عليه بمكة، ومن ثم الرؤيا الصادقة في المنام، ثم إتيان أمين وحي السماء جبريل عليه السلام إليه في الغار وأمره بالقراءة.

٣. ومن المقدمات التاريخية التي تهدف إلى إعداد النبي ﷺ لقبول الرسالة أنَّ بشَّر به الأنبياء والرسل من قبله، وقد بيَّن الله - سبحانه وتعالى - لأهل الكتاب علاماته، ومكان بعثته، ومهاجره وصفاته.

٤. إن الرسالة الإلهية لابدَّ لها من ظرف اجتماعي تملؤه وتتحرك في أنحائه، وتنتشر فيه، حتى يكون ممهدًا للتصديق بنبوته -ﷺ- ، وذلك من خلال الزعامة التي أعطيها قومة في قريش، وكذلك كونه معروفًا لديهم بالصادق الأمين؛ وهذا يدل على أنَّه محلَّ رضا الجميع من بطون قريش يتجلَّى ذلك من خلال خلافهم على رفع الحجر الأسود واتفاقهم على النبي -ﷺ- « هذا الأمين رضينا»، وهو صاحب الشرف في هذا المقام، والذي على إثره يمهِّد القبول بالتصديق بنبوته ﷺ.

٥. إنَّ قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية والاتصال بالله تعالى والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن،

(١) فقه التمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م ص٢٢١.

هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيلٍ، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

٦. إنَّ من أعظم مؤهِّلات النبي -ﷺ- لحمل الرسالة هو القدوة الحسنة لأصحابه وأتباعه، فتعامل -ﷺ- مع سنن الله في غاية الحكمة، وقمة الذكاء، كسنة التدرج، والتدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس، وغرس -ﷺ- في نفوس أصحابه المنهج الرباني وما يحمله من مفاهيم وقيم وعقائد وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وكان الصحابة ن يتأثرون بمنهجه في التربية غاية التأثر ويحرصون كل الحرص على الالتزام بتوجيهاته و تعليماته وإرشاداته، وكانوا يتبعون خطى الرسول -ﷺ- في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقنونه لأبنائهم ومن حولهم.

٧. والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، ولعباده المؤمنين برسله. وما يمكن أنَّ يقوم على هذه الدعوة أحدٌ إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جنته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها.. وجهادٌ مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم. ومع النفوس عامةً، والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله.

٨. وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه -ﷺ- بالذكر والتسبيح والتبتُّل والانقطاع لمناجاة ربه سبحانه وتعالى؛ لأن في الذكر والمناجاة أنسٌ وقربٌ من المولى تبارك وتعالى، وفيه زاد روحي ومعنوي يعينه على تحمل تكاليف ومشقة الدعوة إلى الله تعالى.

التوصيات:

- أدعوا مراكز الدراسات و البحث العلمي، وعمادات الدراسات العليا في الجامعات للاهتمام بالأبحاث الموضوعية في القرآن الكريم، وعلى وجه الخصوص الموضوعات التي تهتم بالجوانب العملية التطبيقية.

،،،وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير، مجد الدين الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، ط١

٢- البخاري، محمد بن إسماعيل ١٤٢٢هـ، الجامع الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط/: الأولى،

٣- البزرة، أحمد مختار ١٩٧٠م، النبوة اصطفاء وقدوة (السنة ٣٣ - العدد ١١٣)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط/ السنة الثانية - العدد الثالث.

٤- الخطيب، عبد الكريم، تفسير القرآني للقرآن، (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة .

١٣- رضا، محمد رشيد القلموني١٩٩٠م،(تفسير المنار)الهيئة المصرية.

٥- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد ١٤٠٧هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق: خليل مأمون، ط الأولى، دار المعرفة - بيروت.

٦- السهيلي، عبد الرحمن، ١٤١٢هـ، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ الأولى.

٧- السهيلي، عبد الرحمن، ٢٠٠٠م، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ الأولى.

٨- الشاربي، سيد قطب، ١٤١٢هـ، في ظلال القرآن، المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط/ السابعة عشر .

٩- الشعراوي، محمد متولي، ٥١٤١٨ ، تفسير الشعراوي - الخواطر، (المتوفى: .)، مطابع أخبار اليوم.

١٠- الصلابي، علي محمد ١٩٩٩م. فقه التمكين في القرآن الكريم، ، دار البيارق، عمان، الطبعة الأولى.

١١- الصَّلاَّبي، عَلي محمد، ٢٠٠٨م، السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط/ السابعة.

١٢- ابن حنبل، أحمد،٢٠٠١م، مسند الإمام أحمد بن حنبل المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى.

١٣- ابن سيد الناس، محمد بن محمد ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم- بيروت، ط/ الأولى.

١٤- الرازي، محمد بن عمر، ١٤٢٠هـ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة: الثالثة.

١٥- القشيري، عبد الكريم، لطائف الإشارات، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة، مصر ط/ الثالثة.

١٦- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

١٧- المباركفوري، صفي الرحمن ١٤٢٧هـ، الرحيق المختوم ، دار العصماء - دمشق ط/ الأولى .

١٨- مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر١٩٩٣م، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط/ الأولى.

١٩- الميداني، عبد الرحمن حَبَنَّكَة،١٩٩٨م، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها، دار القلم- دمشق، الطبعة: الأولى.

٢٠- الناصري، محمد المكي، ١٩٨٥ م، ،التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى.

٢١- الندوي، علي، ١٤٢٥هـ ، السيرة النبوية، دار ابن كثير - دمشق ط/ الثانية عشرة -.

٢٢- النووي، محيي الدين، ١٩٩٤م ، الأذكار، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان .

٢٣- النيسابوري مسلم بن الحجاج، ٥١٤١٩ ، صحيح مسلم، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي طبعة بيت الأفكار الدولية - الرياض.

٢٤- هارون، عبد السلام ١٩٨٩م، تهذيب سيرة ابن هشام - دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤٠٨ هـ-.

٢٥-ابن سيد الناس، محمد اليعمري الربعي١٩٩٣م، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير دار الفكر - بيروت.

٢٦- ابن كثير، إسماعيل القرشي ١٤١٧ هـ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار هجر ، مصر ، ط الأولى -.

٢٧- ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، مؤسسة علوم القرآن، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.

٢٨- أبو حيان الأندلسي، محمد بن حيان: ١٤٢٠ هـ، البحر المحيط في التفسير، (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت.

٢٩- أبو زهرة، محمد، ١٤٢٥هـ، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، دار الفكر العربي - القاهرة .

٣٠- الأصبحي مالك بن أنس، ١٩٨٥م، موطأ الإمام مالك، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العر بي، بيروت - لبنان